مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ

في فلسفة الهجرة

أ. ماغي حسن عبيد
كلية الاداب والعلوم الإنسانية – الجامعة اللبنانية
maguyobeid@hotmail.com

العدد صفر – اذار / 2022

مقدمة

لعل الالتباس أو الخطأ في التسمية قد يشكل جزءاً من نهاية الهوية، وصحيحٌ أن دولنا لم تسقط، لكنها باتت بلا موضوع، إذ إنه يحصل وللمرة الأولى هذا الانفصال الرسمي بين الأرض والدولة، بين شكل الحياة والهوية، دول تستعد للتضحية بشعوبها، وشعوب تضحي بدولها، ولم تعد الدول قادرة على اقناع شعوبها فشرعت الشعوب تبحث عن مكان آخر، تحت مسميات الهجرة أو اللجوء، وبقي الوطن الوعد الاستراتيجي للحرية.

والهجرة هي قصة كل الكائنات، حيث أنها فطرية في الحيوانات والطيور والأسماك، وإرادية أو قسرية لدى الإنسان والجماعات، إذ لولاها لأصيبت الحياة بالركود، نضب العلم وانتفى التنوع، والهجرات المتعاقبة كانت تحصل إما بقصد التجارة والغزو ونشر العقيدة، والبحث عن العلم والعمل، وهي تكتسي اليوم أهمية خاصة، إذ تبدو وكأنها المكان الآخر، أو السبيل الوحيد للعيش لمن يرزح تحت وطأة العنف والاضطهاد والفقر، ونهجاً آمناً للباحثين خارج أوطانهم عن حياة واعدة. وتأثير الهجرة كان ولم يزل يُمارس اقتصادياً، سياسياً، ثقافياً وإنسانياً، وفي بنية المجتمعات، لذا انبرى الفلاسفة لدراسة هذه الظاهرة بتحليل أسبابها، واستقصاء نتائجها، وتفحص إيجابياتها وسلبياتها، وتصور أثرها في حياة الفرد والجماعة. ففي حين أن شوبنهاور *Schopenhauer* يرى بأن المرء لا يكون نفسه حقاً إلا متى كان وحيداً، ومن لا يحب الوحدة لا يحب الحرية، فإنه في المقابل، نجد الفلاسفة من نيتشه *Nietzche* في كتابه هكذا تكلم زرداشت (نيتشه، 2007: 56-58) يعود إلى أن العقل الحر يحتاج إلى رفاق إبداع يخطون قيماً جديدة على ألواح جديدة، كذلك هو الحال عند مارتن هيدغر *Martin Heidegger* في كتابه " الكينونة والزمان"، إذ يؤكد على أن :" الآخرين هم يكونون هناك بعد معنا في كل مرة."(هيدغر، 2012: 238)، ومهمة الفلسفة الأكيدة هي جعل الدازاين معاً، ثمة صحبة سابقة على اكتشافنا لأنفسنا، إنها صحبة الآخرين، الذين يشكلون جزءاً من وجودنا وليسوا ضيوفاً ثقلاء على حدود عالمنا وهويتنا، وهو ما يُعرف باللقاء داخل العالم، ولم تتوانَ حنة أرنت *Hanna Arendt*،في كتابها "الوضع البشري"

عن التصريح بالقول :" أن نعيش معاً في العالم إنما يعني بشكل جوهري أن عالماً من الأشياء يوجد بين أولئك الذين يوجدون حولها؛ إن العالم، مثل أي بينية هو يربط ويفصل بين الناس في نفس الوقت" (*Arendt, 1958: 50*)، وكذلك هو الحال عند لفيناس *Levinas* في كتابه "الكلية واللامتناهي" إذ يؤكد على :" أن نتلقى الغير فيما أبعد من قدرة الأنا (*Levinas, 1961: 43*) انطلاقاً من أن حضور الآخر لا يدمر حريتي بل يستثمرها، والتعايش في جوهره نوع عميق من الأخوة بين البشر، ومعنى التعايش غير ممكن من دون الإقرار بنوع من أولية الآخر علينا، في حين أنه عند جاك دريدا*Derrida* هو لقاء بلا أفق، ولا رجعة، لا هوية وغير متوقع (*Derrida, 1967: 141*)، وبهذا المعنى الهجرة لغةً: تعني انتقال الأفراد من مكان إلى آخر بغرض الاستقرار في المكان الجديد.(معجم المعاني، بلا ت: 4617)، واصطلاحاً: هي الحركة التي يتم فيها انتقال الأفراد بشكل فردي أو جماعي من موطنهم الأصلي إلى وطن جديد، وعادة ما تنوجد ظروفاً تبعث على الهجرة، ففي الهجرات المتعاقبة عند الإغريق والفينيقيين، والتي كانت تحصل بدافع التجارة، الغزو، نشر العقيدة، والبحث عن العلم والعمل، وهي قد تكتسي اليوم أهمية خاصة، سيما وأن "المكان الآخر" يبدو السبيل الوحيد للعيش لمن يرزح تحت وطأة العنف والاضطهاد والفقر، وطريقاً آمناً للباحثين خارج أوطانهم عن حياة واعدة، إذ إنه في ظل انتشار الحروب الأهلية أو الخارجية في الدول وسوء الأوضاع الاقتصادية تحرص دول المهجر على تطبيق مجموعة من الآليات التشريعية والقانونية التي تضمن حقوق المهاجرين وحمايتهم واحترام كراماتهم.

من هنا كان لا بد من طرح الإشكالية الآتية: هل الهجرة من الهوية إلى الانسانية أم أنها انسلاخ واستلاب وإبعاد واستبعاد وتهميش وعزلة وضياع؟ وكيف لمهاجر مسلوخ من انتمائه وهويته من أن يندمج في هويات أخرى؟ وهل تستطيع السلطة وأدواتها بمجالها الحيوي التحكم بإدارة مسارات ونماذج الخيارات في التصنيف الموضوعي والمعرفي لمفهوم الهجرة؟ وهل أن سياقات المواطنة ومداركها، ومدوناتها المعرفية مسلمات مؤسسة بإدارة إشكاليات مضامينها، بمؤثرات ناظمة على توازن عبثية اندثار الهوية؟.

تستهدف هذه الورقة البحثية وفق منهج التحليل الفلسفي والسوسيو أنثروبولوجي تحليل موضوع في فلسفة الهجرة وهو موضوع جديد، مهمته صعبة، ويتطلب الكثير من الجهد والوقت لتكوين استنتاجات صحيحة من خلال بعض الطرق والمنهجيات المتبعة في الدراسات الانسانية والسكانية، والعمل على إظهار مدى مقاربتها للواقع، إذ إنه لا يمكن الركون إلى بعض النظريات القديمة التي تستدعي مزيداً

من الاختبار والمراجعة، كما أنه لا يمكن التعويل عليها بشكل مستمر، بخاصة وأن حاجات الانسان دائمة التغيير، كذلك هو الحال في الظواهر والمجتمعات. وستتمحور ورقتي البحثية حول العناوين الآتية:

8 .**مسوغات البحث**

تهدف هذه الورقة إلى تسليط الضوء على فهم طبيعة ومسببات الأحداث التي تؤدي إلى الهجرة مما يمكّن الأفراد من تطوير سلوكياتهم، والعمل على حماية الطبيعة والمجتمع، وبالتالي تزويدهم برؤية واضحة ومعمقة تستند إلى نظريات وأفكار واعية، تخولهم القدرة على التغيير الاجتماعي والسياسي من خلال القيام بعملية نقد موضوعية وبنّاءة، تسهم في تطوير البيئة والاقتصاد والسياسة، إذ إن التجربة أثبتت أن الثورات والحروب لا تأتي إلا بالدمار والويلات، ولعل خير دليل وبرهان قاطع ما يحصل في لبناننا الذي كلّفته الحروب ولم تزل من كيانه، وتاريخه، وسمعته وإنسانه، فكم نحن بحاجة إلى معرفة أزماتنا الحالية وما يتولّد عنها من أزمات مستقبلية، عسى لهذه المقاربة الفلسفية في الهجرة من أن تؤتي ثمارها، سيّما وأن العلم والفلسفة صدرا عن أصل واحد واقترن أحدهما بالآخر (الطويل، 1976)، والفلسفة فكر المجتمع، والفكر تعبير عن الواقع بهواجسه ومخاوفه التي تهدد الانسان في حياته اليومية والمستقبلية.

وأهمية الورقة البحثية تتمثل في معالجة موضوع الهجرة من منحيين: الأول_يتعلق بالمهتمين والمختصين بشؤون الهجرة والدراسات السكانية، من خلال رصد إشكاليات تقديم هذا الموضوع للقارئ المختص، على طريقة وضع منهجية جديدة للتعامل معها، والمنحى الثاني: يهتم بالقارئ غير المختص، بغية تحصينه من الوقوع تحت تأثير التضليل الإعلامي الخارجي الهادف إلى تغيير مفاهيمه حول الهوية والانتماء، بخاصة وأن الأسباب التي تجعل من الهجرة الملاذ الوحيد والآمن لشعوب القرن الواحد والعشرين، على اعتبار أن إشكاليات الهجرة كحركة انتقالية أكانت مبرمجة أم عشوائية، تتقاطع مع تحديات المكان باعتباره الأفق الموعود، إذ إن الهجرة كظاهرة ترتبط بالحاجة الغريزية إلى الاستقرار والوجود والثبات في مكان معين، فهل الهجرة هي الحل الأمثل والأسلم لتحسين مستوى الحياة؟ وما الدروس المستفادة من إيجابيات وسلبيات الهجرة وفرص المكان وأزماته.

كما أنه لا بد من الإجابة على التساؤلات، ورفد المختصين في حقل الهجرة بدراسة تحليلية لأفاهيم الهجرة، واللجوء، والهوية، وإبراز التحديات الداخلية والخارجية التي تواجه الانسان فتدفع به إلى الهجرة أو اللجوء، والإرتقاء بأفهوم الهوية الوطنية، وتعزيز الولاء الوطني والقيمي والسلوكي لدى النخب والجمهور.

سنعمد إلى استخدام المنهج الوصفي التحليلي القائم على تحليل الأفاهيم وتحديد ماهيتها، ومدى مطابقة الفكر للواقع، ويبقى للمنهج التحليلي البرهاني الأثر الكبير في معالجة الفرضيات التي سأنطلق منها للإجابة على إشكالية هذا الموضوع.

9 .**الهجرة فلسفياً**

في الهجرة اغتصاب مساحة الأنا حيث المهاجر يرتحل بأناه الذاتية والأنطولوجية والتأويلية عن واقع مجتمعه المثقل بالفساد والنزاع والصراع، فيلجأ إلى أناه التي تقيه ألم الواقع المأزوم، فيعمد إلى هجرته الذاتية أو ما يُعرف ب:

أ. الهجرة بالذات، على اعتبار أنها هجرة تكوينية، يسعى من خلالها الفرد إلى تأمله الذاتي فيعمد إلى بناء ذاته بالتأمل بذاتها، وفي ذاتها وعلى ذاتها، بقراءة ابستمولوجية معرفية، نقدية تحليلية تخوله استنباط نتائجها بناء على دلالاتها الثابتة في تحولاتها، والمتحولة في ثباتها، القلقة على مسارها المصيري بين أمل مرتجى وألم مبتغى.

ب. الهجرة من الذات: وهي القائمة على الغربة والاستلاب، حيث الانتقال في الزمان قبل المكان، وحيث الصراع بين الأولويات والإواليات، فالمهاجر يرتحل عن ذاته في فضاء نفسه باحثاً عن أزماته وإشكالياته وتساؤلاته، وحيث البحث الجدّي لتقصي الحقائق بطريقة تحليلية استقرائية تجعله قادراً على الإلمام بكل جزئية من جزئيات هذا العالم المليء بالألغاز، فيعمد إلى تفكيك بناه وتصوراته ورؤاه محاولاً استكشاف مضامينه، عاملاً على استبعاد ما لا يصلح، والاغتناء بما يصلح، مجنداً ذاكرته التي تقيه السقوط في المتاهات، وخياله الذي يخوله قراءة هذا العالم بابعاده الفيزيائية الطبيعية، الكونية العالمية وحتى الميتافيزيقية حيث يتملكه الخوف فيصبح أسير وهم يتحول إلى إله ميتافيزيقي، ومن ثم يتحول هذا الإله إلى صوت ذاتي داخلي، فيتأرجح بين الخوف والرجاء، ويسير على غير هدي إلا ما سمعه عن المكان المقصود.

ج. الهجرة الى الذات: حيث استنباط الذات العادلة على منظومة أو مفهوم القيم السائدة أو الرائدة بالموروث الحالم أو المأزوم المبتغى، وحيث الهجرة التائهة والعودة المستحيلة، إذ إن النفس العاملة على تطبيق نظرياتها بالاستناد إلى واقعها الأخلاقي، السياسي، الديني والقانوني تعمل على تشكيل تصورات ورؤى ناظمة لشكل الحكم في العالم الجديد، فتعيش أزمة الحضارة التائهة وازدواجية الهجرة والحنين التي تتأرجح بين الأوطان، وبخاصة

تحديات الهجرة السرية بالاستناد إلى منظومة قيمية فاعلة، تعيد تشكيل إنسان القرن الواحد والعشرين باجتماعه النفسي، السياسي الديني والانتربولوجي بما يخوله الانطلاق للبحث عن ظمئه الميتافيزيقي، المشتعل شوقاً للوصول إلى تكامله وانسجامه، اتساقه وانتظامه مع الطبيعة وصولاً إلى إقامة التوازن مع التقانة والآلة، والعمل على نحو كوكبي.

د. الهجرة لأجل الذات: حيث اللقاء الانساني، وحيث صراع النفس مع الذات وعليها بمندرجات الروح التواقة إلى التغيير، إذ إن الهجرة بمضامينها ومفاهيمها، بمدلولاتها ومندرجاتها، بسبيلها وأنماطها بآلياتها وتصوراتها، هي فعل تماثلي على عدم الفعل بالانتماء، حيث أن مدلولات التبرير بسلوك التغيير يحمل في طياته صفات ما تيقن أو استنزاف أي فرصة للتغيير، فتجدها تعيش التماثل والتقابل، المضاهاة والتناظر، التجانس والتقارب، التشابه والتطابق، التداخل والتخارج، التوافق والتباين في مفهومها لتصل إلى استشراف كمالها بحركتها الدائرية من كينونتها إلى كمالها ورشدها.

10 .المواقف المتباينة من الهجرة

10.1. النظريات المؤيدة للهجرة: يوليان نيدا - روملين: Julian Nida Rumelin

وعند طرح السؤال عليه حول هل كيف للفلاسفة أن يجيبوا عن أخلاقيات الهجرة؟ وكيف يمكن للفلسفة مساعدة السياسة؟ وما مشروعية أن تتدخل الفلسفة في السياسة؟ يجيب على هذا التساؤل أستاذ الفلسفة ووزير الدولة السابق للشؤون الثقافية بطريقتين: من جهة أولى، يعتبر أنه لا يمكن للفلسفة أن تلعب الدور الذي كان يلعبه الكاهن على اعتبار أنه قديماً كان يُنظر إلى الكاهن على أنه المحيط بكل العلوم والمعارف، فهو الطبيب، والعرّاف، وهو الفيزيائي، والفلكي، والكيميائي والرياضي الملمّ بعلوم ومعارف وخبرات عصره، بخاصة وأن أزمة اللاجئين كانت قد جلبت معها نوعاً من أزمة توجّه. ومن جهة أخرى، يؤكد على الحضور الفعلي للفلسفة كونها اختصاص التفكير السليم، والمصطلحات المتماسكة والنتائج المنطقية، على الرغم من اعتقاده بأن هذا الاتجاه العلمي يفتقر إلى الشروط الموضوعية والموارد، التي تؤهله القدرة على التمييز بين ما هو جيد وما هو غير جيد، وبالتالي اتخاذ القرارات المتعلقة بالتفاصيل، التي تتعلق بالسياسة المتعلقة باللاجئين.

انطلاقاً من هذا السياق، وهذه الحدود يمكن للفلسفة أن تقدم المساعدة والمشاركة في توضيح الأمور، والتقييم الأخلاقي لسياسة اللجوء. فهو يؤيد موقف أنصار الكونية الكوزموبوليتية المتجاوزة لحدود

الدول القومية إلى قيم حقوق الانسان فهو يقول :" أنا من المشككين فيما يتعلق بتبرير قيام الدولة على أساس التعاضد المحلي (أو حتى القومي)، إلا أنني في ذات الوقت من مؤيدي الدفاع عن الحدود الشرعية للدولة." (*www.deutschland.de*)، الأصل عند روملين المفكر الألماني أن الأرض هي ملك للجميع، وبالتالي من حق أي إنسان أن يهاجر لأي بلد كان على ألا يمسّ بهويتها وكينونتها. على اعتبار أن المفكرين الذين يؤيدون فتح الحدود، ويتسمون بالكونية الكوزموبوليتية قد يتعرضون لانتقادات المفكرين الآخرين الذين يقعون في الطرف الآخر مدافعين عن شرعية لحدود الدولة في خطابهم، الذي يتسم بالخطاب الأنجلو–سيكسوني، أو القومي، أو ممن يُطلق عليهم لقب "أصحاب التعاضد المحلي"، لهذا يذهب روملين إلى إصراره على الكوزموبوليتية بالقول:" أنا من أنصار مبدأ الكونية، إلا أنني في ذات الوقت من مؤيدي الدفاع عن الحدود الشرعية" (*www.deutschland.de*)، وهنا تبرز التوفيقية أو التلفيقية لدى روملين، فهو من جهة يؤمن بحقوق الإنسان وشرعة حقوق الإنسان، لكنه في المقابل يدعو إلى أن تحافظ كل دولة على حدودها واستقلاليتها، شرعيتها وسيادتها.

ويتم التعرض لليسار السياسي من الماركسيين الذين يذهبون إلى أن راديكالية سوق العمل العالمية بدون أية قيود أو شروط والمترافق مع مستويات اجتماعية مرتفعة سيؤدي حتماً إلى مزيد من إفقار المناطق الأكثر فقراً في العالم، باعتبار أن القوى العاملة المؤهلة والقادرة ستكون وجهتها المناطق الأغنى عالمياً، لهذا لا بد من شرعنة حدود الدولة، وتقييد حركة الهجرة الوافدة إليها، مترافقة مع الالتزام بحقوق الإنسان بخاصة لأولئك الوافدين من المهجرين، الباحثين عن الملجأ والأمان والحماية، بموجب معاهدة جنيف، حيث أنه من حق الفارين من الحروب الأهلية في بلدانهم، اللجوء إلى البلدان المجاورة بتمويل من المجتمع الدولي، وبمساهمة الدول كافة، حيث سينعم اللاجئ بالحصول على المأوى والحماية، إلى أن تزول الأزمة أو الحرب الأهلية، ولكن في حال استمر اللاجئ في البقاء في بلد اللجوء، ولم تعد هجرته مؤقتة، بل باتت هجرة دائمة، هنا لا بد من فتح آفاق كيفية إدماجه في المجتمع الجديد ثقافياً وعملياً بأسرع وقت وأرقى صورة ممكنة.

ولكن ما هي الأخلاقيات التي ستحكم السياسات المتعلقة باللجوء؟ تُعتبر مشكلة اللجوء والتي هي بحد ذاتها مشكلة فلسفية مركزية وأخلاقية في كيفية التعاطي والتعامل مع اللاجئين والمهاجرين، ولعلها المشكلة الفلسفية المركزية التي تتطلب من الدول مواجهة الإشكاليات الأخلاقية التي تتمحور حول الالتزام بمعاملة اللاجئين بمقدار الضرورة والحاجة، وبالتالي التعامل معهم باحترام كأبناء البلد الأصليين، أما في ما يتعلق بالخدمات والمساعدات الإجتماعية فذلك يرجع إلى أحكام المحكمة الدستورية الاتحادية

العليا، وإلى البلدان التي على عاتقها تقع مسؤولية هيكلة التعاون الدولي، وإعطاء الأولوية للأكثر فقراً وجوعاً وحرماناً في العالم، بخاصة وأن الأكثر فقراً ليس لديهم الإمكانية للهجرة عبر القارات والبلدان، والقانون المنطقي للهجرة يقضي بتقديم المساعدات للبلدان المنكوبة، من خلال اتفاقات تجارية عادلة، وتشجيع البنى الاقتصادية والزراعية والانتاجية، والتعويض عليها، لا سيما هجرة الأدمغة، لا مراعاة مصالح البلد المستقبل للمهاجرين فحسب، والتخفيف من معاناة اللجوء والهجرة، بحيث يؤمن لهم حياة كريمة كهجرة مؤقتة، إذ إن الهجرات العابرة للقارات قد تزيد من حدة المعاناة في البلد المهجّر والمهاجر إليه معاً.

على الرغم من أن روملين كان متفائلاً بالنسبة لمستقبل ألمانيا وقدرتها على تحمل موجات الهجرة الوافدة إليها، لكن بين المشكلات التي تواجهها البلدان الأوروبية من حيث الهجرة غير الشرعية من جهة، وأعداد الضحايا التي تلقى حتفها في البحر المتوسط إما قتلاً، أو غرقاً من قبل تجّار البشر والمهربين. أليس من الأجدى تخفيف ألمانيا لإجراءاتها الأمنية تجاه المهاجرين قبل الحديث عن أخلاقيات الهجرة؟.

10.2. النظريات المعارضة للهجرة: سليمان بشير دياني

يذهب ناجح ابراهيم مؤسس الجماعة الإسلامية في مصر، إلى أن في الهجرة حياة جديدة، وهو إذ يؤكد بالقول :" الهجرة قدر على الأنبياء، وكأنها جزء من حياتهم ورسالتهم، هاجر إبراهيم ويوسف ويعقوب والأسباط، كما هاجر محمد والمسيح عليهم السلام، هاجر المسيح وعمره عامان مع أمه العذراء مريم ويوسف النجار كفيله." (إبراهيم، 2018)، فبالهجرة يسعى المرء إلى طلب العلم والخير وبذل المعروف، مستشهداً بأنه لولا الهجرة لما ركب نوحاً سفينة النجاة، ولولا هجرة النبي محمد (ص) إلى المدينة لماتت دعوة الإسلام في مهدها، ولما كانت التعددية، ولما انتقلت العلوم الإسلامية الشرعية من الأزهر، ومدارس المذاهب إلى العالم أجمع" (إبراهيم، بلا ت)، فتصبح بذلك الهجرة النبوية المدخل إلى فلسفة التاريخ والتحول الحضاري.

يبقى أن ناجح ابراهيم الذي وجد في الهجرة طريقاً لنشر الدعوة الاسلامية، لكنه لم يتنبه للإشكاليات التي واجهها الرسول في هجرته من مكة إلى المدينة، ولعل من أبرزها: الحروب بين الأوس والخزرج، والمشاكل الاقتصادية نتيجة هجرة أعداد كبيرة من أهل مكة إلى المدينة، مع ما ترافق من مشاكل المهاجرين الذين لم تكن لديهم المؤهلات والقدرات للعمل في الزراعة. وعلى هذا، لم يكن وصول النبي إلى نشر الاسلام بالأمر السهل، وكان قد تعرض لكل تلك الصعوبات والمشاكل، فما بالك بالانسان

العادي المهاجر إلى بلد غريب كم من الصعوبات والمشكلات ستواجهه؟. لهذا من باب أولى إبراز المشاق والثغرات التي يمر بها المهاجر وبالتالي انعكاساتها على الفرد والمجتمع، هذا ما ألمح إليه دياني في تركيزه على الانعكاسات السلبية للهجرة على الفرد والمجتمع، وبخاصة العنصرية.

يقف المفكر السنغالي سليمان بشير دياني، صاحب تاريخ المنطق الرياضي، في موقف معارض لناجح ابراهيم، معتبراً أن نزعات الانطواء على الهوية، هي نزعات تعيد النظر في البعد التعديلي الأخلاقي للإنسانية، مشيراً إلى أن البعض كان يقترح فرز اللاجئين حسب دياناتهم، وكان يرد ذلك إلى الطابع البدائي للغريزة القبلية، فأخذ يدعو إلى الروح المنفتحة والاحساس بالإنسانية لتجاوز هذه الغريزة لذا لم يتوان عن القول :" يجب أن نفكر معاً في صورة المهاجر التي توحي بالمحنة للبشرية وتصاعد ما يُسمى بالعرقية –القومية والتي أسميها "بالقبلية" باعتبار أن كلمة "الشعبوية" التي تم اعتمادها، لا تفي بالمعنى. إن أفضل رمز لتمثيل نقطة الإلتقاء بين المهاجر والعرقية–القومية هو تلك السفينة التي أجرها شبان أوروبيون من أقصى اليمين، أطلقوا على أنفسهم إسم "الجيل المتمسك بالهوية"، لاستخدامها في البحر الأبيض المتوسط كحاجز أمام قوارب المهاجرين، ولنا أن نتساءل إن هم ينوون إغراق هذه القوارب، صورة أخرى تجول بالخاطر، وهي صورة الصيادين التونسيين الذين يعارضون تزويد السفينة بالوقود في موانئ هذه البلاد، معتبرين أنها سفينة العنصرية. من المعلوم أن الحركات العرقية–القومية نجحت هنا وهناك في أن توصل إلى السلطة أحزاباً وشخصيات جعلوا من الهجرة فزاعة مخيفة، وطلبوا من ناخبيهم أن يساندوهم في التصدي لها، بتكوين جبهة قومية. وكادوا أن ينجحوا في أن تحتل أيديولوجيتهم المرتبة الأولى في هولاندا، ذلك البلد الذي سجله التاريخ، وتاريخ الفلسفة بالخصوص، بكونه أرض التسامح وفكرة الانسانية بامتياز" (دياني، 2017). وقد كشفت أزمة الهجرة عن نزعة الانطواء القبلي التي تُعتبر مصدر ما يسميه الفيلسوف سليمان بشير دياني أزمة فكر الانسانية، وهو إذ يتماشى مع برغسون *Bergson* وينتحي منهجه التفكيري في القول بالإنسانية عموماً، وبخاصة "الروح المنفتحة" فبرغسون في كتابه مصدرا الأخلاق والدين باريس 1932 يذهب إلى أن الأحساس بالانتماء القبلي هو غريزة (*Bergson, 1932*) وبما أنه غريزة فلا بد من الاعتراف بوجوده، وبأنه مغروس فينا.

11 .**الهجرة من لبنان**

لعل إشكالية الهجرة بوصفها ظاهرة إنسانية قد تشير إلى حدة التناقضات الداخلية في بنية المجتمع، وتبرز المدى الذي وصلت إليه هذه التناقضات في تصادمها وتأزمها الجوهري العميق، وصعوبة البحث

في الهجرة أو المغامرة فيها في إطار تطورها التاريخي كظاهرة اجتماعية اقتصادية متعددة الجوانب، متشابكة العوامل والانعكاسات، فكيف بها إذا كانت الهجرة اللبنانية بالذات، بالنظر إلى شدة كثافتها التاريخية من جهة، وتفاقمها الكمي والنوعي من جهة أخرى، إضافة إلى تفردها في عمق الآثار الإيجابية والسلبية التى نرى بصماتها متجلية في سياق التطور التاريخي للبنى الاجتماعية اللبنانية. ولعل عدد المهاجرين يكاد يتجاوز بكثير عدد اللبنانيين المقيمين(*Abou Dib, 1974: 13*). بخاصةٍ وأن الإحصاءات تفتقد إلى الدقة، ويكثر فيها التناقض، عدا عن تناثر المغتربات اللبنانية، وعدم وجود رعاية رسمية لبنانية تضع أسساً علمية لتسهيل تشجيع أبحاث الهجرة اللبنانية، لدرجة بات مطلباً ملحاً ومشروعاً إنشاء مركز أبحاث خاص بالهجرة في إطار بناء الدولة اللبنانية العصرية والمعاصرة، لا سيما إذا ما تضافرت جهود الجامعة اللبنانية، ووزارة المغتربين لإنشائه وتمويله ورعايته.

11.1. علي فاعور وآخرون

الهجرة من لبنان، لعل مقولة " أنا أهاجر، إذاً أنا لبناني، تبرز حجم الكارثة التي يعانيها الشعب اللبناني في ظل الحروب والنكبات التي تتوالى على أرضه، وكأن قدر طائر الفينيق ألا يرتاح، وأن يبقى على استعداد لأن ينتفض من تحت الرماد في كل آن وحين، وكأن هاجس اللبناني أصبح بحجم كوارثه المتسارعة ليجد في الهجرة الملجأ والملاذ الآمن، مع أن هذه الهجرة تفرغ لبنان من قواه العاملة، حيث أن معدلات الخصوبة تنخفض، والشيخوخة ترتفع والعزوبية راسخة، وارتفاع معدل البطالة، والمشاكل الأمنية والسياسية، وغياب الإرشاد المهني، وعدم دراسة سوق العمل... أصبحت كالمطرقة على رأس كل مواطن، وأصبحت كلمة مغترب مفخرة لا تستدعي الندم. وأصبح البحث عن وطن مبرراً يلجأ إليه المغترب اللبناني لتبرير هجرته، إذ إن المفكر اللبناني عصام نور الدين يعمد إلى توصيف الواقع بقوله :"... ثمة 11 مليون لبناني في جميع أصقاع العالم، من أصل 15 مليوناً، وهو عدد اللبنانيين الاجمالي، فيما 68 في المئة من اللبنانيين المقيمين ينتظرون تأشيرة الهجرة بنفاذ صبر." (نورالدين، بلا ت)

يذهب الباحثون اللبنانيون إلى تحليل الهجرة التي تضحي باللبنانيين كقرابين على مذبح التخلف الطائفي والمذهبي إذ غالباً ما يُساء توظيفهم في لبنان، فيستغلون فقرهم ويحولونهم إلى قادة محاور، أو إلى أدوات تُستثمر في خدمة مشاريع إقليمية ودولية، في الوقت الذي ينبغي أن يستفيدوا من طاقاتهم وخبراتهم التي تجعلهم يشعرون بأنهم مواطنون في هذه الوطن لا رعايا طائين أو مستجدين على أرضه، والخوف كل الخوف من تهجير لبنان من سكانه الأصليين لإحلال المجنسين مكانهم، ولكن يبقى السؤال. كيف سيكون شكل لبنان في ظل هجرة شبابه، وتهجير سكانه الأصليين؟ وما هي الحلول العملانية

لخفض حجم المهاجرين؟ وهل الحل يكمن في إلغاء الطائفية السياسية، والقضاء على الفساد، ومحاسبة الفاسدين واعتماد قانون للانتخابات قائماً على النسبية؟ أم أن هناك حلولاً أخرى ينبغي تسليط الضوء عليها وتفعيلها للحد من الهجرة؟

لعل ما أورده الباحث اللبناني ميشال عبس الذي تساءل عن كيفية عودة المغتربين إلى أرضهم، فيما توظيفهم يخضع للمحسوبية السياسية من دون النظر إلى الكفاءات، وأن الهجرة هي نتاج مسار ثقافي نفسي، ضارب في جذور المجتمع اللبناني، ويترافق مع الأسباب الاقتصادية والاجتماعية المنفّرة، وأن ما يحتاج إليه لبنان هو صدمة إيجابية تنزع المناعة عن النظام الاجتماعي السياسي الثقافي العفن، الذي ازداد سوءاً بعد الطائف، إضافة إلى منع الطبقة الحاكمة من إشعار الشباب بأنهم ضيوف ثقيلو الظل على أرض وطنهم (نورالدين، بلا ت). قد يشكل هذا الكلام جزءاً من الحل، لكن الحل الكامل يتطلب تغييراً في ذهنية اللبنانيين، إذ إنه لم يعد مقبولاً النظر إلى هذا الوطن على أنه ساحة لصراعات الآخرين عليه، بات اليوم مطلوباً وبإلحاح كف الأيدي الخارجية الإقليمية والدولية عن التلاعب بمصيره ومساره، إلى متى سيبقى مصير اللبناني معلقاً بين مطرقة الغربي وسدّانة العربي؟ ألم يحن الوقت بعد لهذا الوطن من أن يشيّد بنيانه على أسس قويمة، ويشكل دولة حرة سيدة ومستقلة؟ ألم يحن الوقت بعد لأن يشكل هويته الخاصة فيه؟ وكيانه الديمقراطي العادل فينعم فيه أبناؤه بإنسانية الانسان؟ إلى متى سنبقى لقمة سائغة في فم من يتشدق ويتلهى بنا؟ والى متى سيبقى ساستنا وقادتنا عبيداً مستزلمين؟

مشكلتنا ليست مع الآخر، وإشكالياتنا بنيوية تقع في صميم ذهنيتنا التي جعلتنا نعتقد بقصورنا وعجزنا وعدم قدرتنا على حل مشاكلنا، عملاً بمن يوحي إلينا بأنه " لا تفكروا" نحن نفكر عنكم، ودائماً بانتظار أن يأتي الرد من الخارج، إلى متى سننتظر الآخر يكتب تاريخنا، يرهن حاضرنا ونرتهن بمستقبلنا؟ إلى متى سنبقى ريشة في مهب الريح؟ أو فقاعة هواء فوق نهر راكد؟

تشير دراسة للباحث اللبناني علي فاعور إلى أن الخطر الداهم على مصير لبنان ومستقبله سيتمثل في تصاعد وتيرة الهجرة المغادرة، مقارنة بانخفاض وتيرة النمو السكاني، وهذا ما يستدعي ازدياد الطلب لأسباب اقتصادية على اليد العاملة الأجنبية، وتقلص نسبة صغار السن مقارنة بأعداد المسنين (فاعور، 2001: 11)، لعل الهجرة المستجدة ستترك خللاً بنيوياً كبيراً على التركيبة السكانية في لبنان، قد تجلب معها انعكاسات كارثية، إذ من المتوقع مغادرة 4 أو 5 في المئة من اللبنانيين مما يهدد بتغيير وجه لبنان، ويضعه في خانة الخطر الوجودي المترافق مع استعداد غير اللبنانيين للحلول محلهم، لا سيما أنه لا وجود لعملية إحصاء صحيحة لتعداد السكان المقيمين، وقد يكون هذا التغييب للأرقام متعمداً،

بحيث يرزح هذا الوطن بسيل من خليط بشري غير المتجانس، في ظل الفشل الذريع للسلطة السياسية في إدارة الموارد البيئية والانسانية فيه.

وفي مقابلة للمفكر اللبناني علي فاعور في صحيفة الراي مع الاعلامية زيزي أسطفان يؤكد :" إن 2020 من أسوأ السنوات التي مرت على لبنان منذ الحرب الأهلية، فقد شهدت أسوأ الكوارث مع انفجار مرفأ بيروت (4 أغسطس) الذي ترافق مع انهيار للعملة وانتشار حاد للفقر بحيث تحدّثت الهيئات الدولية عن نسبة فقر راوحت بين 50 إلى 60 في المئة قبل الانفجار، وارتفعت بعده إلى نسبة تعدّت 70 في المئة. وأدت أزمة "كورونا" وإقفال البلاد تكراراً إلى تداعيات ثقيلة لأن أكثر من 80 في المئة من سكان لبنان يعملون في قطاعات هامشية غير مستقرة من دون راتب ثابت أو تغطية صحية، الأمر الذي أدى مع الإقفال إلى ارتفاع نسبة الفقر." (فاعور، 2020)، ولعل المتوقع في العام 2021 وخلال عقدين من الزمن تحدّيات ومخاطر قد تصيب لبنان في تركيبته الداخلية وتجعله عرضة لانهيارت بنيوية واهتزازات داخلية عميقة، فهل قدر اللبناني أن يرتحل في الزمان قبل المكان، وكأنه مكتوب أن يخسر لبنان أجيال بأكملها، من الحرب الأهلية اللبنانية، إلى هذه الأزمة الراهنة حيث طلبات الهجرة تملأ السفارات، ولعل أكثرها إلى فرنسا التي تتقدم لائحة طلبات الهجرة، تليها السويد وإيطاليا، وكندا، وألمانيا وأستراليا، وتكثر أيضاً الهجرة غير الشرعية من المناطق لمن لا يستطيع الحصول على بطاقة سفر بسبب عدم امتلاكهم المال الكافي لمتطلبات الهجرة، فيصبحون عرضة للمهربين ولقوارب الموت على الشطآن، فيكون ارتحالهم الزماني إلى عالم أوسع وأرحب من المكان المقصود الوصول إليه برحلتهم إلى الأبدية بدل الوطن القومي البديل. ويصبحون كالموتى الأحياء ينتظرون قوارب إما العبور إلى جهنم أو إلى بلدان أخرى قد تكون الحياة فيها أشبه بجهنم أو أكثر.

ويذهب علي فاعور في توصيف واقعنا المعاصر اليوم، مع بداية الألف الثالث، وفي ظل العولمة إلى القول:"...إن مساحة لبنان المغترب العالمية هي المجال الجغرافي للبنان المقيم وهي بشكل آخر وحدوده عبر العالم، لكننا بحاجة للتكامل بين متغيرات "لبنان المقيم" الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية، وهي قد بلغت مرحلة حرجة، وإمكانات "لبنان المغترب" السياسية والمالية والعالمية، وهي قد أصبحت في حجم "قوة عالمية عظمى"، حيث تمثل الهجرة جسور الترابط بين لبنان ومحيطه وهي مسلك العبور في الخريطة الكونية بعد انهيار الحدود والمعابر.." (فاعور، 2020: 12). ولكن يبقى السؤال ما مصير هذا الوطن في ظل أزمة النازحين السوريين، بخاصة وأن فقراء يستضيفون فقراء مما

يجعل الفقر مركبا، والحل مستعصيا، وكيف السبيل للخروج من براسن انهيار الليرة وفقدان لقدرتها الشرائية مما يؤدي إلى ارتفاع نسبة الهجرة وأعداد المهاجرين.

12. الهجرة واندثار الهوية

لعل أول أنواع الهجرة من السماء إلى الأرض بدأت بمقولة فلسفية لسقراط التي دعا فيها إلى معرفة الانسان ذاته بذاته، مروراً بكل المفكرين والفلاسفة الذين هاجروا في الذات والكون والله، والتي اتخذت هجراتهم أبعاداً ابستمولوجية معرفية، أو كونية يونيفرسالية، أو ظاهراتية وصفية، أو حتى غشطالتية شكلية، وإن اتسمت أحياناً ببنائيتها أو تفكيكيتها يبقى الرهان على الإنسان المرتهن في هويته ككائن مؤطر منتمٍ بحدود دينية، قومية، عرقية، إثنية أوجغرافية إذ إن الهوية تحصّنه وتصونه من التماثل والتشابه مع الآخر،

يتسع المجال اللبناني عبر العالم من خلال الهجرات التي اعتمدها البعض من اللبنانيين كمغامرات، ومحاولات أدت إلى رسم حدود كبرى لخريطة الاغتراب اللبناني، بين "هجرة مغادرة" و "هجرة عائدة"، حتى بتنا نتحدث عن "لبنان المقيم" و "لبنان المغترب" الذي برز فيه رؤساء دول، ورجال سياسة، وعلماء، وتجار، وشعراء، وأدباء ومفكرين لمعوا وأكدوا حضورهم في المسرح العالمي، إذ إنه غالباً ما ترتبط ظاهرة الهجرة بتحولات اجتماعية واقتصادية وديموغرافية قد تكون نتيجة لعمليات تهجير واسعة، وتترافق مع هجرات سكانية قد تحدث في الداخل والخارج معاً، مع العلم بأن هذه الظاهرة البارزة في شخصية لبنان التاريخية والجغرافية، ولأهميتها تتصدر الأولوية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسكانية، مع العلم بأن البحث فيها شائك وشاق، نظراً لتشعب إشكالياتها المتنوعة منهجاً وإحصاءً ومعلومات.

13. الهجرة واللجوء: رهان وارتهان

لا يختلف اللاجئ أو المهاجر عن المواطن الأصلي لأي بلد من البلدان، بل هو مثله مثل أي مواطن أصلي تماماً، يولد ويموت في الرحلة من المهد إلى اللحد، يحمل أحلاما بعضها يصيب وبعضها يخيب، هو أشبه بالنخلة كمخلوق له أصل وجذور، وبالتالي ليس ريشة في مهب الريح، وليس حجراً يرمى في الماء فيشكل دوائر تتسع شيئاً فشيئاً باحثاً عن دائرته الكونية الكبرى، هو أشبه ببذرة تبذر في الحقل معلناً انتماءه وتجذّره في تراب الوطن، والفرق بين اللاجىء والمهاجر، أن اللاجىء لا يسافر بل يرحل، اللاجىء بلا وطن، ولذلك هو لا يعود، في حين أن المهاجر هو يحتفظ دوما بصورة العائد في

قلبه. تذهب حنا أرندت إلى إن اللاجئين وهم مطرودين من بلد إلى آخر، إنما يمثلون طليعة شعوبهم_ إذا ما احتفظوا بهويتهم"، قد تشكل الهجرة أحياناً صمام أمان للبنان، وملجأ دائماً لأبنائه عندما تعصف المحن والنكبات بأرضه، ولطالما لعبت الهجرة دوراً في إعمار لبنان، بخاصة وأن الحجم الكبير لأبنائه المهاجرين والتجار المنتشرين على مساحة العالم، بطاقاتهم البشرية التي تصل حدود الكونية، وبأدمغتهم التي أوصلتهم حدود العالمية تجعلنا نطمئن إلى أنه لا خوف على لبنان ولا على اللبنانيين.

يتطلب التدرج المنطقي منا عرض لتحديات الهجرة، وبخاصة مسألة الهويات المتصارعة، والإيديولوجيات المتناحرة، والعصبيات المتقاتلة في مجتمعات تعاني عقدة التناقضات، وإشكاليات التعددية والوحدة، وجدليات المغبونية والخوف، في ظل أنظمة : طائفية، برلمانية وحرةّ، وكيف لهذه التحديات الراهنة والمستقبلية، وبخاصة علاقة المثقف بالسلطة، وتقاطعها مع بروز العولمة وتبعاتها من أن تقود المهاجر أو اللاجىء إلى بر الأمان، وهنا لا بد من بعض التصورات بالمعالجات الممكنة لمواجهة تحديات إنساننا المعاصر وصولاً إلى إبراز أن مستقبل هذا الانسان رهن بأزمتين إيديولوجية وتكنولوجية. فهل أن الأزمات المصنفة وحاكميتها وتطورها بمفهوم الزمان وتداعياتها في الجغرافية السياسية، هي مدونة في الحقوق المأزومة على الأدوات المتعددة للتعديل والتدخل؟ أسئلة وتساؤلات، خيارات وتحديات، نماذج في مسارات لصياغة تراكم بمعالم هي فلسفة للوجود، بهجرة لا تباعد في حدود إنسانية على وطن جريح.

الخاتمة: المهاجر بين العمالة والغربة

إنها الهجرة أو الغربة بمفهومها المعاصر، حيث حركة الهجرة التي تشهدها البلدان العربية وبخاصة لبنان إلى بلدان العالم الجديد، ولعل الانهيار الاقتصادي والأمني والاجتماعي يُعتبر من أهم البواعث والدوافع، مع العلم بأن الهجرة ليست جديدة على اللبناني، وهي كانت قد بدأت في أواخر القرن الماضي، واستمرت في ظل الاحتلال الفرنسي، وخفتت في عهد الاستقلال، لكنها عادت لتنتشر بكثافة في ظل هذه البلاد السائرة نحو الخراب، والشعب السائر نحو الانقراض، بخاصة وأنها تشبه إلى حد بعيد النزيف في جسم الوطن، والوبال الوخيم الذي يخيم على الأمة، على الرغم من أن البعض من المفكرين يشجعون عليها باعتبارها الطريق للثراء، والزواج والتوالد والموت أو هم في طريق الموت، والأولاد لا بد سينسون وطن الأجداد، ولم يعد المهاجر اليوم يرتحل ليعيل أسرته او ما بقي من أسرته، بل بات يصطحب معه الى غربته الأسرة بأكملها لذا، لم يعد لديهم حلم العودة لا هم ولا أولادهم، ولعل أكثر ما يجدي في هذا

الموقف الإحراجي هو منع الهجرة منعاً باتاً، وإجبار المهاجرين على العودة لا بالصورة الالزامية أو الجبرية، بل بإزالة المعوقات والأسباب التي تدفع المقيمين وهم مرغمون إلى الهجرة، وغير المهاجرين على الإقامة بحيث لا يتطلعون إلى الوراء حيث شظف العيش، والظلم والشقاء، إذ إنه في ذمة القابضين على أعنة الحالة الاقتصادية، وفي ذمة القابضين على الثروة العامة والحكم، هذه البلاد تسير سيراً حثيثاً نحو الدمار والخراب، وها هو الشعب اللبناني المتطلع إلى الحياة والحرية يسير بخطى سريعة نحو الزوال والانقراض.

صحيحٌ أن المهاجرين حققوا ويحققون نجاحات في بلاد الاغتراب فتراهم يتقلدون مناصب حكومية عليا، فترى فيهم رجال أعمال ممن يملكون ثروات طائلة، ينعمون بالرخاء والاستقرار، فالكسب مضمون، والحرية متوفرة، المجتمع متقدم والكرامة مصانة، لكنهم في الوقت عينه يشعرون بالفصام والازدواجية في مشاعرهم وأحاسيسهم، فهم يحنّون إلى الوطن غير أن ذاكراتهم المثقلة بالمرارة والتي جعلتهم يهاجرون غير آسفين، فتجدهم يلعنون ما يحصل من ضائقة اقتصادية خانقة، وشقاء وبؤس وإحراق لبيروت ولبنان، وفوضى تعمّ البلاد قاطبة، ويبدو لبنان وكأنه ريشة في مهب الريح فكيف نرجع لهذا المهاجر الرغبة بالعودة إلى الوطن؟ فيهرب من غربته ويستعيد ذاته الممزقة الحبلى بألم الحنين والغربة؟ وهل الأصالة تكمن في اقتطاع جزء من الذات الانسانية؟ وهل للهوية من أن تتجزأ؟ وكيف للانسان أن يحيا بهوية مركبة تجعله خائناً مرتدا بنظر أهله، ومنبوذاً عدواً بنظر الآخرين؟ حيث تتلاقى فيه الانتماءات المتعددة المتعارضة فتلزمه بخيارات ممزقة. ويبقى السؤال بِمَ يختلف المواطن الأصلي عن المهاجر؟

المصادر

[1] ابراهيم، ناجح. (2018). *الهجرة بين محمد والمسيح*، المصري اليوم، الخميس 18-01-2018.

[2] ابراهيم، ناجح. (بلا تأريخ). *الهجرة، رؤية فلسفية جديدة*. www.shorouknews.com

[3] دياني، بشير سليمان. (2017). *الفلسفة لمواجهة القبلية*. رسالة اليونسكو، أكتوبر-ديسمبر 2017، الفلسفة لمواجهة القبلية، أكتوبر- ديسمبر 2017، ar.unesco.org

[4] الطويل، توفيق. (1976). *أسس الفلسفة*. ط1، القاهرة، دار النهضة العربية.

[5] فاعور، علي. (2001). *الهجرة الخارجية وأثرها البنيوي في المجتمع اللبناني*. محاضرة ألقيت في النادي الثقافي العربي، بيروت، يمو الجمعة بتاريخ 4 أيار\مايو 2001.

[6] فاعور، علي. (2020). *أدمغة تبحث عن "حلم بديل"..لبنان "يهجر" أبناءه*. صحيفة الراي، بيروت، 19ديسمبر 2020.

[7] معجم المعاني.

[8] نور الدين، عصام. (بلا تأريخ). *الهجرة تفرغ لبنان من قواه العاملة*. al akhbar.com

[9] نيتشه، فرديدرش. (2007). *هكذا تكلم زرداشت*. كتاب للجميع، تر. على مصباح، بيروت، دار

الجيل.
[10] هيدغر، مارتن. (2012). *الكينونة والزمان*. تر. فتحي المسكيني، بيروت، الدار العربية للكتاب.

[11] Abou Dib, B. (1974). "l'Emigration Libanaise Aujourd'hui", dans *L'emigration Problème Libanaise*, Liban, Kaslik.
[12] Arendt, Hanna, The Human of Chicago Press,1958, P50
[13] Bergson. (1932). *Les deux sources de la morale et de la religion*, Paris, Felix Alcan.
[14] Derrida, J. (1967). "Violence et métaphysique, Essai sur la pensée d'Emmanuel Levinas" In: *L'écriture et la difference*. Paris, Editions du Seuil.
[15] Emmanuel Levinas, Totalité et infini, Essai sur l'extériorité (La Haye: M.Nijhoff, 1961,P43).
[16] www.deutschland.de
[17] www.julian.nida–ruemelin.de